

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

قراءة في مقدمات الكتب النحوية مقدمة الفصل - أنموذجاً -

الباحثة : د. زينب هاشم حسين

كلية التربية للعلوم الإنسانية - ابن رشد

قسم اللغة العربية

البريد الالكتروني للباحثة : zainab.hashim@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

رقم الهاتف : +964 07706009837

الملخص

لا ريب أن الكتب النحوية أو اللغوية القديمة كانت ولا تزال منجماً ثراً للعلوم اللغوية والنحوية ، فضلاً عن أمور وخصوصيات أخرى منهجية أسلوبية اختلفت بها الكتب القديمة ، لما تميز به مؤلفوها من الموسوعية في شتى العلوم ، والملكة اللغوية الثرة التي تتميز بتفجر المعاني على ألسنتهم ، وتعدد الأبنية التي تطاوع مقاصدهم ، وانصياع اللغة مطاوعة المآرب القول عندهم ، وهم في كل ذلك منتجين مثمرين ، تحمل سطورهم زخماً هائلاً من الألفاظ والمعاني ، وتختزن كلماتهم أوجه متعددة من المقاصد ، وهم في كل ذلك تراهم يضعون الحرف موضعه ، ويجسدون أهمية التشكيل في أداء المعنى غير مخلين ولا متذبذبين تتساب التراكم بين أيديهم مترابطة منسجمة لتتشكل في نصٍ يجتهد الأولين والآخرين في فهم رموزه وشرح ألفاظه وإدراك جواهره.

إن الشراح والمحققين والدارسين لم يتركوا شاردة ولا واردة في ما كتبه الأقدمون إلا انكبوا على درسها وتمحيصها ، وهم في كل ذلك يرومون فهمها وإبراز أصالة معدنها ، ولكن مقدمات الكتب النحوية لم تتل حسبما أعلم بدراسة تستنطق النص ، وتستهدفه من حيث هو يمثل باباً يلج منه القارئ إلى ساحة فياضة بالعلوم مترامية المقاصد مغلقة في بعض جوانبها ، ترهق الفكر أحياناً ، وتجهد القارئ لفك رموزها ، وتتعب العقل الذي يبغى رشف رحيقها المكتنز بدقائق اللغة وقوة الأسلوب .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

لذلك ارتأت الباحثة في محاولة جادة أن تقدم دراسة تتناول المقدمات النحوية ، متخذة من مقدمة كتاب "المفصل في علم العربية" أنموذجاً لها ، وهي تأمل أن يحمل هذا البحث في طياته ملامح وإشارات تستحق الملاحظة ، وتفتح باباً واسعاً للباحثين لينقبوا من جديد في هذه الكتب متأملين مقدماتها تأملاً جديداً ، وبأسلوبٍ جديد.

وتروم الباحثة أن تقدم قراءة لمقدمة المفصل من جوانب عديدة ترتكز جلّها في محورين : الأول يتمثل في المؤلف ، والآخر : ينظر في المؤلف ، على أن لا تخرج هذه القراءة عن حدود مقدمة المفصل.

المحور الأول : المؤلف .

أولاً : مرجعياته الفكرية وأثرها في نص المقدمة :

إيمانه وعقيدته :

عُرف الزمخشري بالسيرة المحمودة والتمسك بالدين والورع¹ ، ولك أن تتلمس آثار ذلك في مصنفاته ؛ ففيها أقوالاً على لسانه تحت على الورع والتقوى والنقاء السريرة ، من ذلك قوله في (أطواق الذهب): "أحرص وفيك بقية على أن تكون لك نفس نقية فلن يسعد إلا التقى وكل ما عداه فهو شقي"² .

وهذا ما نجد صداه واضحاً في مقدمة المفصل ، فالمطالع لسطورها يجد بين ثناياها رجلاً صاحب دين وورع يباهي بإسلامه يفاخر بنبيه مفضله على سواه، فيقول في أولها³: "والى أفضل السابقين والمُصَلِّين أَوْجَهُ أَفْضَلِ صَلَوَاتِ الْمُصَلِّينِ مُحَمَّدٍ الْمُحْفَوفِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ بِجَمَاجِمِهَا وَأَرْحَائِهَا النَّازِلِ مِنْ قَرِيْشٍ فِي سُرَّةِ بَطْحَائِهَا الْمَبْعُوثِ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ بِالْكِتَابِ الْمُنُورِ وَلِآلِهِ الطَّيِّبِينَ أَدْعُو اللَّهَ بِالرِّضْوَانِ وَأَدْعُوهُ عَلَى أَهْلِ الشَّقَاقِ لَهُمُ الْعُدْوَانُ"⁴ أنظر إلى روعة تعبيره وجمال تفضيله لخاتم الأنبياء وأخصهم محمد ﷺ فقال: (أفضل السابقين والمُصَلِّين)، فالسابقُ من الخيل أول من يأتي إلى الحلبة، والمُصَلِّي الذي يتلوه؛ فإذا أتى الفرس على أثر الفرس السابق قيل:

¹ يُنظر : الزمخشري لغوياً ومفسراً: 83-84.

² أطواق الذهب ، المقالة الخامسة والعشرون ، ص33.

³ ارتأت الباحثة تمييز نصوص مقدمة المفصل بخط أعمق من باقي نصوص المتن ، إبرازاً لها وتمييزاً عن غيرها من النصوص.

⁴ المفصل:2 ، وشرح المفصل (ابن يعيش): 46/1. نسخة شرح المفصل أعانت الباحثة في تدقيق النص وتشكيله.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

قد صلى وجاء مصليا، لأن رأسه يكون عند صلا السابق - أي مغرز ذنبه، وقد كنى بذلك عن الأولين والآخرين من الإنس والجنّ أجمعين¹.

وفي قوله: (النازل من قريشٍ في سُرة بطحائها)، يريد أنه من صميم قريش، فسُرتها:وسطها، وقد أخذ من سرّة الإنسان، وقريشُ البطاح: هم الذين سكنوا بطحاء مكة، ويقال لغيرهم: قريش الضواحي، وقريش البطاح هم الأفاضل؛ فهم أكرم وأشرف من قريش الضواحي لأن البطاحويين من قريش حاضرة وهم قحطان الحرم، وقريش الضواحي: أعراب بادية².

لقد فضّل النبي ﷺ برشيق الوصف ؛ فكأنه قال : هو أفضل الأفاضل .

وقد عُرف عن الزمخشري حبه للمذهب الحنفي وتفقهه عليه ، حتى قال فيه : "وتد الله الأرض بالأعلام المنيفة ، كما وطدّ الحنيفية بعلوم أبي حنيفة"³ ، وقال : " الدين والعلم حنفي وحنفي"⁴ ، وقال أيضاً : " رضي الله عن العلماء الخاشعين لله وحسابه ... جمعوا إلى الدين الحنفي العلم الحنفي ... أولئك العلماء حق العلماء "⁵ .

إن حبه للمذهب الحنفي وتفضيله لعلمائهم يبدو جلياً في قوله في مقدمة المفصل : " وينفضوا من أصول الفقه غبارهما - يُريد العربية⁶ ، و لا يتكلموا في الاستثناء فإنه نحو ... وأشباهاها مما يطول ذكره كله من النحو ، وهلا سفهوا رأي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله فيما أودع كتاب الإيمان "⁷ ، وذلك في معرض تنبيهه وتأكيدهِ على أهمية العربية في فهم الفقه وبيان أصوله ، وأنه لا سبيل لذلك إلى بالعربية ، واللافت للنظر أنه قد

¹ يُنظر: العين مادة (صلا) : 153/7 ، وشرح المفصل (ابن يعيش) : 46/1.

² يُنظر : لسان العرب مادة (ضحا) : 481/14 ، وشرح المفصل (لابن يعيش) 47/1-48.

³ نوابغ الكلم الورقة 8.

⁴ المصدر السابق

⁵ أطواق الذهب ، المقالة 42 ، ص52.

⁶ من إضافات الباحثة .

⁷ المفصل : 4 ، وشرح المفصل (ابن يعيش) : 1/56-60.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الاول)

خص محمد بن الحسن الشيباني من بين الفقهاء بالذكر وخص كتابه من بين كتب الفقه بالاهتمام ، وذلك ضمن كتابه المعروف بـ (الجامع الكبير) في باب الإيمان¹ .

ومحمد بن الحسن الشيباني المذكور هو صاحب الإمام أبي حنيفة رحمته الله وتلميذه ، وممن استتبط فروعه ونقحها وهذبها وحررها بحيث لم تحتج إلى شيء آخر ، وذلك في كتابه المذكور مع كتاب آخر هو (الجامع الصغير)² .

أما عقيدته الاعتزالية ، التي كان يدعو لها ، ويجاهر بها ، بل إنه يفاخر باعتزاله ، ويدعو نفسه : أبو القاسم المعتزلي³ .

هذه العقيدة لم نجد صداها واضحاً في مقدمته الوجيزة ، وإن لمحناها في لفظة واحدة ، وقد يكون قاصداً لها أو قد يكون استعمالها في مورد آخر سوى الاعتزال ، وذلك في قوله :

" الله أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية . وجبَلني على الغضب للعرب والعصبية . وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز . وأنضوي إلى نفيف الشعوبية وأنحاز . وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين . والمشق بألسنة الطاعنين"⁴ .

فقوله : (أنحاز) أي أعتزل ، وانحاز عنه : عدل ، وانحاز القوم تركوا مركزهم ومالوا إلى موضع آخر ، ويُقال للذي ينحاز عن القوم ويعتزلهم : حُوزِي ، وهو المنحاز في ناحية ، أو محل الذي يُحتمل فيه وحده وينزل وحده ولا يخالط فيه أحد ، والتحوز هو التنحي والانفراد⁵ .

لعل الزمخشري استعمالها بما استقر في عقيدته الاعتزالية ، أو لعله استعمالها لميله إلى الاقتباس من المفاهيم والألفاظ القرآنية ، مقتبساً من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ

¹ يُنظر : شرح المفصل : 60 / 1 .

² ينظر : حاشية رد المختار : 53/1 .

³ يُنظر : لسان الميزان : 4/6 ، ووفيات الأعيان 255/4 .

⁴ المفصل : 2 ، وشرح المفصل : 42-43 .

⁵ يُنظر : تاج العروس : 56/8-75 ، وشرح المفصل : 45 / 1 .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الاول)

بِعَصَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ¹ ، وهو يريد التحيز عن الشعبية ، إلى فئة علماء العربية المتعصبين لها المتمسكين بها .

حبه للعربية وتعصبها لها :

من يُطالع مقدمة المفصل لا يمكنه إلا أن يجزم على أمرين : شغف المؤلف بهذه اللغة ، والثاني : أهمية العربية وأثرها في غيرها من العلوم ، ولاسيما العلوم الإسلامية .

إن من عادة الكتاب والعلماء أن يبدؤوا كتبهم ومصنفاتهم بحمد الله على سائر نعمه ، ومما يلفت الانتباه أن الزمخشري يبدأ المقدمة بحمد الله خصوصاً على علم العربية وتمكنه منه ، فيقول : "الله أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية . وجَبَلَنِي على الغضب للعرب والعصبية"² .

لقد كان الزمخشري محباً للعرب والعربية ، متعصباً لها ، ، يقول " العرب نبع صلب المعاجم والغرب مثل الأعاجم"³ ، ويحمد الله أيضاً في مقدمة كتاب الأدب على العربية ، قائلاً : "الحمد لله الذي فضل على جميع الألسنة لسان العرب كما فضل الكتاب المنزل على سائر الكتب"⁴ .

وقد دفعه حبه للعربية أن يؤسس جلاً مقدمة المفصل عن العربية وفضلها ، ونقص من يرفضها أو يدعو إلى مفارقتها ، فيقول : " ولعل الذين يُعَصُّون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفصوا ما رفع الله من منارها ، ... والذي يُقضي منه العُجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم . وفرط جورهم واعتسافهم . وذلك أنهم لا يجدون من العلوم الإسلامية فقها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يُدفع ، ومكشوفٌ لا يتقنع"⁵ ، فالافتقار إلى العربية بين ظاهر لا يمكن إغفاله ، وقد خصَّ علمي الفقه والكلام من بين

¹ سورة الأنفال : 16 .

² المفصل : 2 ، وشرح المفصل : 42/1-43 .

³ نوابغ الكلم 3

⁴ مقدمة الأدب 1 .

⁵ المفصل : 2 ، وشرح المفصل : 42/1-43 .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الأول)

العلوم الإسلامية الأخرى بالذكر لأن الفقه اشتمل على علم الكتاب والسنة ، والكلام أصله ليس عربياً ، بل يونانياً ، فلا يُعرف على الحقيقة إلا بمعرفة ألفاظها ، ولا تعرف ألفاظها إلا بمعرفة العربية ، وهذا ما يؤكد الزمخشري في مقدمته ويدل عليه ، مؤسساً كلامه على بيان أهمية العربية في فهم الفقه وبيان أصوله ، ومدى تعلق التفسير وتشبث القرآن وتأويله بالعربية¹ ، فيقول : "وَيَرَوْنَ الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها، مبنياً على علم الإعراب والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء² وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقوالهم . والتشبث بأهداب فسره وتأويله"³ ، ولا ريب أن الزمخشري محق فيما ذهب ، مطلع على كتب الفقه ، متناولاً لأصوله ، ومتبحر في تفسير القرآن ، ومصنف فيه أشهر التفاسير وأمتها صلةً بالعربية⁴ ، ولا حاجة بنا في هذه العجالة أن نذكر أمثلة تدل على صحة قول الزمخشري ، وتؤكد أهمية العربية وشدة تعلقها بالفقه والتفسير ، فكتب الأصول والتفسير⁵ مليئة بكل مباحث اللغة العربية، آخذة بنظر علماءها في إقامة الأصول وإحكام التفسير .

ويستطرد الزمخشري في حديثه عن مدى تعالق اللغة العربية بالتفسير والفقه ، فيقول :

" فما بالهم لا يُطَلِّقون اللغة رأساً وإعراب . ولا يقطعون بينهما وبينهم الأسباب . فيطمسوا من تفسير القرآن آثارهما . وينفضوا من أصول الفقه غبارهما ، و لا يتكلموا في الاستثناء فإنه نحو وفي الفرق بين المعرف والمنكر فإنه نحو وفي التعريفين تعريف الجنس وتعريف العهد فإنهما نحو وفي الحروف كالفاء والواو وثم ولام الملك ومن التبويض ونظائرها وفي الحذف والإضمار . وفي أبواب الاختصار والتكرار . وفي التطبيق بالمصدر

¹ يُنظر : شرح المفصل : 51/1.

² خصّ أشهر علماء اللغة البصريين والكوفيين ؛ لأن الإعراب بصري وكوفي وسيبويه أستاذ أهل البصرة ، والأخفش تلميذه ، والكسائي شيخ أهل الكوفة والفراء تلميذه ، يُنظر : شرح المفصل (التخمين) 141/1-142.

³ المفصل : 3، وشرح المفصل (ابن يعيش) : 51/1.

⁴ لقد كان للزمخشري موقفاً مشابهاً في مقدمة الكشاف ، فهو يشترط للمفسر البراعة في علم المعاني والبيان ، فارساً في علم الإعراب ، عارفاً بكتاب سيبويه . يُنظر مقدمة تفسير الكشاف .

⁵ يُنظر : على سبيل المثال لا الحصر والاقتصار : الفصول في الأصول للجصاص (ت370هـ) ، والذريعة في أصول الفقه للمرطضى (ت436هـ) ، وفي التفسير : التبيان للطوسي (ت460هـ) ، والتفسير الكبير للرازي (ت606هـ).

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

واسم الفاعل وفي الفرق بين أن وإن وإذا ومتى وكلما وأشباهاها مما يطول ذكره كله من النحو وهلا سفهوا رأي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله فيما أودع كتاب الإيمان ، وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة . وهل أصبحت الخاصة بالعامه مشبهه . وهل انقلبوا هزأة للساخرين وضحكة للناظرين . هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا . آثاره العظمى عديدة الحصى . ومن لم يتق الله في تنزيهه . فاجترأ على تعاطي تأويله . وهو غير معرب فقد ركب عمياء وخطب خطب عشواء وقال ما هو تقوُّلٌ وافتراء وهراء وكلام الله منه براء . وهو المرقأة المنصوبة إلى علم البيان . المطلع على نكت نظم القرآن الكافل بإبراز محاسنه الموكل بإثارة معانده . فالصاد عنه كالتسآد لطرق الخير كيلا تسلك . والمريد بموارده أن تُعاف وتترك" ، وفي نص الزمخشري هذا مسائل عدّة لا بد من الوقوف عليها ، وهي :

موقفه من الإعراب :

إن الزمخشري يتبين موقفه واضحاً من الإعراب في ثنايا النص السابق ، فهو يتابع علماء العربية القدامى في نظرتهم للإعراب ومكانته في بيان المعنى ، وأنه لولا الحركات الإعرابية ما أمكن التمييز بين المعاني كالفاعلية ، والمفعولية، وغيرهما، وهو موقف الكثير من علماء العربية القدامى ؛ فقد ذهب ابن قتيبة (267هـ) والزجاجي (339هـ) ، وابن جني (392هـ) ، وابن فارس (395هـ) إلى أن الإعراب هو الفارق بين المعاني المتكافئة ، وفيه تُميز المعاني، ويُوقف على أغراض المتكلمين ؛ على أن علماء العربية القدامى وخاصة سيبويه، المبرد ، ابن جني ، عبد القاهر الجرجاني لم يقصروا الدلالة على المعنى بالإعراب فقط ، فهم كانوا يهتمون بدراسة التراكيب من خلال العلاقات القائمة بين أجزائها، وما يوجد من تكامل بين ألفاظها، وما تحمله من الدلالات¹ ، والزمخشري يوافق ذلك فلم يقصر إدراك المعنى على الإعراب ، ففي النص السابق نجد يتناول مسائل غير الإعراب يجدر الاهتمام بها ، كالفرق بين المعرّف والمنكّر ، وتعريف الجنس والعهد ، ودلالات الحروف ، ومواطن الحذف والإضمار ، وأساليب الاختصار والتكرار ، لكنه يخصّ الإعراب ويميزه عن غيره من القرائن التي تتناظر لإبراز

¹ دراسات في اللغة عبد الحليم بو فاتح ، 7

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

المعنى¹ ، فيقول : " فما بالهم لا يُطَلِّقون اللغة رأساً والإعراب . ولا يقطعون بينهما وبينهم الأسباب . فيطمسوا من تفسير القرآن آثارهما . وينفضوا من أصول الفقه غبارهما... هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا . آثاره العظمى عديدة الحصى . ومن لم يتق الله في تنزيله . فاجترأ على تعاطي تأويله . وهو غير معرب فقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء وقال ما هو تقوُّلٌ وافتراء وهراء وكلام الله منه براء . وهو المرقأة المنصوبة إلى علم البيان . المطمع على نكت نظم القرآن الكافل بإبراز محاسنه الموكل بإثارة معادنه"² ، فاللغة لا تفرق عن الإعراب لما بينهم من وشائج المعنى ، والتفسير والفقه لا يخلو من آثار الإعراب لأنه دليلاً على الإبانة ووضوح القصد ، فللإعراب فوائد عديدة ، به يُعرف التنزيل ، ويفهم القرآن ، ويعتلى إلى البيان ، وبه يُستدل على نكت النظم ومعادنه ومحاسن القرآن وفرائده.

وقد خصّ الزمخشري الاستثناء ، والتعريف والتذكير ، وبعض الحروف ، والحذف والإضمار ، والاختصار والتكرار ، والفرق بين بناء المصدر واسم الفاعل ، والفرق بين بعض الأدوات ، دون غيرها بالذكر لتعالقها مع مسائل فقهية مهمة كمسألة الطلاق³ ، وقد لمح لذلك بقوله : "وفي التطبيق بالمصدر واسم الفاعل" ، وقد أفاض ابن يعيش في بيان أهمية هذه الموضوعات في مسألة الطلاق وأثرها على أداء المعنى ، ضارباً أمثلة عديدة لذلك⁴ .

وذهب ابن يعيش وابن الحاجب في شرحهما إلى أنه خصّ كتاب (الأيمان) - لمحمد بن الحسن الشيباني ، وذلك ضمن كتابه المعروف بـ (الجامع الكبير) - بالذكر لأنه يتضمن "مسائل فقه تبنى على أصول العربية ، لا تتضح

¹ تلمح الباحثة هنا إلى نظرية تظافر القرائن لتمام حسان - ولم تذكرها طلباً للإيجاز ، يُنظر : اللغة العربية معناها ومبناها 231-234.

²

³ يُنظر : شرح المفصل (ابن الحاجب) 8/1

⁴ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) 57/1-60.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الأول)

إلا لمن له قدمٌ راسخٌ في هذا العلم¹ ، ثم يذكر بعض مسائل الكتاب ليدل على صحة قوله في أهمية العربية لفهم مسائل الكتاب المذكور .

موقفه من تفشي اللحن :

كان الزمخشري متشدداً في مسألة الخروج على القواعد اللغوية ، حتى أنه كان يردّ بعض القراءات المشهورة لمخالفتها القواعد ، فينسب القراءة إلى اللحن ، الذي يجعله من وهم الرواة وأخطاءهم ، وهذا الأمر ينطبق عنده على رواية الحديث أيضاً ، وهو يستند في حكمه على وهم الرواة بمدى قبول البناء أو التركيب لقواعد العربية وموافقته إياها ، وحتى ما عرّف عنه من استشهاده بشعر المولدين إلا هذا الاستشهاد لم يكن مطلقاً بل قيده ببعض المولدين ممن عرّف عنهم الفصاحة ومجانبة الخطأ ، أمثال أبي تمام ، المتنبّي ، البحتري² .

وقد أشار الزمخشري إشارة سريعة في مقدمة المفصل إلى أن إهمال العربية والنقل من شأن الإعراب سبب تفشي اللحن على السنة الخاصة أيضاً ، وذلك في قوله : " وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهةً . وهل أصبحت الخاصة بالعامّة مشبهه . وهل انقلبوا هزأةً للساخرين وضحكةً للناظرين . هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا . آثارة العظمى عديدة الحصى " ، فالتراطن : "كلام لا يفهمه الجمهور وإنما هو مواضعة بين اثنين أو جماعة والعرب تخص به غالباً كلام العجم"³ ، ويُطلق أيضاً على أصوات الفرس .

لقد جعل الزمخشري الكلام الذي لا يأتي على مقاييس العربية ، وأسس قواعدها ، من الكلام الذي لا يفهم ككلام العجم بالنسبة للعربي ، وهذا التراطن جعل كلام الخاصة شبيهاً بكلام العامة ، مقلداً من قيمة العلم والعلماء ، جاعلاً منهم مصدراً للضحك والسخرية ، ويتم النص عائداً إلى بدايته "ومالهم لا يطلقون الإعراب " ، وكأنه يجيب عما سأل ساخراً منهم في أول كلامه ، فيجيب "الأعراب أجدى من تفاريق العصا " .

¹ المصدر السابق : 60/1 ، وشرح المفصل (ابن الحاجب) 9/1 .

² يُنظر : الزمخشري لغوياً ومفسراً : 197-201 .

³ لسان العرب : 181/13 .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الأول)

الشعبوية في مقدمة المفصل¹:

إن العصر الذي عاش فيه الزمخشري تميز ببروز صفة غلبت عليه وأثرت فيه ، وهي التعصب للقومية ، فقد انتهز أكثر الأعاجم ضعف الخلافة العباسية وتفرق العرب حينها ، فجعلوا يتعالمون على العرب والعربية ينقصون من مقدارهما ما استطاعوا ، متهجمين على التاريخ والثقافة واللغة العربية ، وقد أختص جانب اللغة بمحاولة إقصاء العربية وإحياء اللغات القومية بدلاً عنها ، فصارت الشعبوية علماً لكل من يُصغّر شأن العرب - ، ولكن الزمخشري بما له من علمية لغوية ، وأدب عالي ، ووقه بالدين ، وتبحر في كتاب الله وقف ضد هذا التيار ؛ لأنه كان يرى العربية لغة الإسلام ، وهي حلقة الوصل بينه وبين كافة علومه ، وهي حلقة الوصل أيضاً مع الثقافة العربية الإسلامية².

لذلك كانت مقدمة المفصل بالأخص ، تتميز بموقف شديد من الزمخشري تجاه الشعبوية ، وتمجيداً وزهواً بعلم العربية والتمكن منه ، فهو يحمده الله في مقدمة المفصل على تمكنه من علم العربية ، وعدم انجراره إلى تيار الشعبوية ، " وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز . وأنضوي إلى نفيف الشعبوية وأنحاز . وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجد عليهم إلا الرشق بأسنة اللاعنين . والمشق بأسنة الطاعنين " ، ثم يكمل بعد الحمد والصلاة على النبي وآله في نصٍ طويل يتعرض فيه لمن يغض من شأن العربية فيقول : "ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه ، في عجم خلقه ولكن في عربه . لا يبعدون عن الشعبوية منابذةً للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج . والذي يُقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم . وفرط جورهم واعتسافهم . وذلك أنهم لا يجدون من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بينٌ لا يُدفع ، ومكشوفٌ لا يتقنع . ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبيناً على علم الإعراب والتفاسير مشحونةً بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفرّاء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين

¹ إن تكرار هذا اللفظ أكثر من مرة في المقدمة ، وتشدد الزمخشري في إيراده والتبرؤ من أصحابه ، والحمل عليهم ، أوجب على الباحثة الوقوف عنده في سطور قليلة .

² يُنظر : الزمخشري : 88-90.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

والاستظهار في مآخذ النصوص بأقوالهم . والتشبث بأهداب فسرههم وتأويلهم . وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم . وتدريسهم ومناظرتهم . وبه تقطر في القراطيس أقلامهم وبه تسطر الصكوك والسجلات حكاهم . فهم متلبسون بالعربية أيه سلخوا غير منفكين منها أينما وجهوا كل عليها حيثما سيروا ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ويدفعون خصلها . ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها . وينهون عن تعلمها وتعليمها . ويمزقون أديمها . ويمضغون لحمها . فهم في ذلك على المثل السائر الشعير يؤكل ويندم ويدعون الاستغناء عنها ، وإنهم ليسوا في شقي منها".

وموقف الزمخشري هذا لم يكن في مقدمة كتابه المفصل فقط ، بل وجد في مواضع عديدة مبنوثة في كتبه الأخرى ، والذي كان يبرز في تفضيل العربية وتوقيرها ، من ذلك قوله : " فرقك بين الرطب والعجم ، هو الفرق بين العرب والعجم " ¹ ، وقد نراه في مواضع أخرى ساخرا من الشعوبيين وأخلاقهم ، وذلك في بعض شعره ² :

وقل للشعوبيين إن حديثكم أضاليل من شيطانكم ووساوس

لكم مذهب فسئل يُعزُّ بمثله أشايب حمقى لا الرجال الأكاييس

موقفه من الفلسفة :

عُرف عنه كرهه للفلسفة والغلو في العلم ³ ، فيقول : " ولا تستمع لقول الفيلسوف لأنه لا يألو أن يتحمق وأن يغلو ويتعمق ، أن اشتهاره بقوله الفج طوح به وراء كل فج ... ما شئت بالمتظاهر بالفلسفة من أنواع الركافة والسفسفة" ⁴ .

وهذا الموقف من الفلسفة وما يتعالتق معها من التأويل ، نجد صداه في مقدمة المفصل ، فيقول : " هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا . آثاره العظمى عديدة الحصى . ومن لم يتق الله في تنزيله . فاجترأ على

¹ نوابغ الكلم 38.

² ديوان الزمخشري : 61.

³ يُنظر : الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري : 14.

⁴ أطواق الذهب المقالة الثالثة والعشرون : 30-31.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الأول)

تعاطي تأويله . وهو غير معرب فقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء وقال ما هو تقوُّلٌ وافتراء وهُراء وكلام الله منه براء "

ثانياً : لغته وقوة أسلوبه :

تذكر لنا كتب التراجم والسير علم الزمخشري الغزير ، وشغفه بالتعلم منذ صباه ، وبالأخص العلوم العربية والإسلامية حتى أنه يحمده في أكثر من موطن على حبه للعربية ونبوغه في علمها ، حتى ملأت المكتبات مصنفاته ، التي كان يتخذ منها أبناء البررة ، وهذا الشغف بالعلم والدرس منحه مساحةً واسعة بالثقافة في مختلف أنحاءها ومسابرها ، فأقن وألف مصنفات في شتى أنواع العلوم كالنحو واللغة والأمثال وغريب الحديث والتفسير والعروض والفقهاء¹ . وقد عكست لنا مقدمة المفصل قدرة الزمخشري لهذه العلوم وأثرها على جمال أسلوبه ، ودقة لغته ، وانصياحها لمقاصده.

فقد كان متمكناً من فنون البلاغة وصنوف الفصاحة ، مستعملاً لمختلف صورها في مقدمته الموجزة ، فمن ذلك استعماله الأبنية المتعددة بما يناسب فواصل الكلام ، ويمنح إيقاعاً جميلاً في السمع ، فيقول: " وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز . وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز" ، وقوله : "إلا الرشق بألسنة اللاعنين . والمشق بألسنة الطاعنين" ، وقوله "من بني عدنان بجماجمها وأرحائها . النازل من قريشٍ في سُرة بطحائها" ، انظر إلى تناغم الألفاظ وانسجامها : (أمتاز - أنحاز ، الرشق - المشق ، ألسنة - أسنة ، لا عنين - طاعنين ، أرحائها - بطحائها) ، وهو في كل ذلك لم يقحم لفظاً ، ولم يحشر معنى لا حاجة له .

بل نجده في أغلب ألفاظه دقيقاً في الإيراد ، محصاً في المعنى ، فيقول : "اللهُ أحمد على أن جعلني من علماء العربية" ، فلم يقل اللغة العربية بل نراه استعمل لفظ (العربية)² ، ليشمل علومها اللغوية ، وغير اللغوية مما تعالق معها من العلوم الإسلامية كالتفسير والفقهاء مثلاً ، وغير الإسلامية كالأمثال ، والأدب ، والعروض ، وغيرها ،

1

² ذهب ابن يعيش في شرحه أن المراد بالعربية هو المفرد والمركب من كلام العرب ، لأن اللغة تقع على المفرد من كلام العرب. يُنظر شرح المفصل (ابن يعيش) : 44/1.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

وهو مما تشهد به مؤلفاته ، فهو لا ريب كان قاصداً لفظة العربية لتشمل سائر ما امتلك ناصيته وأبحر فيه من العلوم.

وفي موضع آخر يقول " محمد المحفوف من بني عدنان بجماعها وأرحائها . النازل من قريش في سُرّة بطحائها" ، فالسُرّة بمعنى الوسط ، هذا معناه العام¹ ، لكن الزمخشري راعى هوامشه الدقيقة ، فاستعمله ولم يستعمل (وسط) رغم شيوعه ، فالسُرّة : المعروفة سرّة الإنسان هي خالص جسمه ولينه ، وفي حديث ظبيان يقول : نحن قوم من سرارة مذحج ، أي من خيارهم² ، فالزمخشري لم يرد فقط وسط البطحاء ، بل أراد أن يقول أن النبي ﷺ هو خالص أهلها وخيرهم.

إن انصياع اللغة للزمخشري وطواعية الألفاظ لمراميه مكنته من استعمال العديد من الألفاظ المتقابلة التي تمنح الكلام توازناً وانسجاماً ، وتسبكه سبكاً ، فيطلب أخره أوله ويجذبه بعضه بعضاً ، بصياغة أسلوبية رائعة ، من ذلك قوله : "وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز . وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز" ، لقد جمع في هذا السطر عدّة متقابلات ، مثل : أنفرد * أنضوي (بمعنى أنضمّ) ، صميم * لفيف (أي أخلاط الناس)³ ، وهي قد عمّقت المعنى وأبرزته. وفي موضع آخر يستعمل الأبنية المتعددة للجذر الواحد ليؤدي المعاني المتعددة بما يمنح الكلام طراوة وحلاوة تتم عن مقدرة الكاتب وحُسن أسلوبه ، فيقول : " حيثُ لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه" ، فالخيرة : اسم المختار ، وهو من الاختيار : الاصطفاء ، يُريد محمدٌ خيرة الله: أي مختاره ، أما خير كتبه : أفضلها⁴.

الاقتباس من القرآن الكريم ، وأمثال العرب :

¹ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 47/1.

² يُنظر : مقاييس اللغة : 68/3 ، والنهائية في غريب الحديث : 360/2.

³ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 44/1 ، وشرح (ابن الحاجب) : 2/1.

⁴ يُنظر : الصحاح : 651/2 ، وشرح المفصل (ابن الحاجب) : 6/1.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

الزمخشري اللغوي ، والمفسر ، المصنف في اللغة والتفسير والأمثال أشهر المصنفات ، جاءت ألفاظه ومعانيه مقبسة بغير تكلف ، جارية على لسانه بسلاسة وعذوبة ، وهو يحاكي بها آيات النظم القرآني ، وبلغ أمثال العرب وكلامهم ، في تناسق وانسجام بما يناسب المقام ، وما يطلبه القول ، ففي مقدمته القصيرة ، كانت اقتباساته كثيرة موزعة حسب ما تقتضيه المقاصد ، فمن ذلك قوله : "محمد المحفوف من بني عدنان بجمامها وأرحائها" ، اقتبسه من قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَا هُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾¹ ، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾² ، فالمحفوف : المحوِّط الذي قد أُطيف به³.

وقال في موضع آخر : "فهم متلبسون بالعربية أيَّةً سلكوا غير منفكين منها أينما وجهوا كلَّ عليها حيثما سيروا" ، وقد أخذه من قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾⁴ ، فالكلّ : الثقل⁵.

أما الأمثال فقد احتلت مكاناً رحباً في مقدمته⁶ ، من ذلك قوله : "لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج" ، فقد أخذه من المثل : الحق أبلج والباطل لجلج⁷.

وقوله : "هذا وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا" ، وهو أجدى من تفاريق العصا ، مثل يُضرب لمن يكثر الانتفاع به⁸.

استعماله الأبنية النادرة ، والشاذة :

¹ الكهف 32 .

² الزمر : 75 .

³ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 47/1 .

⁴ النحل : 76 .

⁵ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 53/1 .

⁶ يُنظر شرح المفصل (ابن يعيش) : 49-50 ، 55 ، 62 ، 63 .

⁷ جمهرة الأمثال : 294/1 .

⁸ المصدر السابق : 252/1 .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

استعمل الزمخشري في قوله : "وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز" ، الفعل : أبى يَأبَى ، بفتح العين في الماضي والمضارع ، وهو من الأفعال النادرة ، ولم يأت منه إلا ما كانت عينه أو لامه حرفاً حلقياً ، وقد حكاه سيبويه واحتج له ولم يحتج لغيره ، لأنه مما رُوِيَ عن العرب ، وقد عده آخرون من باب تداخل اللغات ، على ما حكاه ابن جنى أنه من باب ضرب ، وابن سيده أنه من باب علم¹ ، والذي يعيننا من كل ذلك استعمال الزمخشري لفعل نادر مما ينم عن سعة ألفاظه وعمق إطلاعه على أبنية العربية .

ومن استعماله للشاذ ، اشتقاقه (أفعل التفضيل) مما شذ عن القياس ، وذلك في قوله : "وإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا" ، فقد استعمله بمعنى : أنفع ، وهو من الجدا على زنة (أفعل) ، وشذ لأن أفعل لا يكون مما هو على أربعة أحرف ، ويفضّل ابن يعيش أن يستعمل (أنفع) ، فهو أجود من (أجدى) ، وقد جوّز حملة على رأي من يقول : ما أعطاه للدراهم² .

(كافّة) لا تأتي إلا منصوبة على الحال:

هذا ما ذهب إليه ابن يعيش في شرح المفصل وابن الحاجب في الكافية³ ، وهما يعيبان على الزمخشري قوله في المقدمة : "لإنشاء كتاب في الإعراب ، محيط بكافّة الأبواب" .

ابن يعيش يرى أن قول الزمخشري (بكافّة الأبواب) شاذ من وجهين :

الأول : خفضها بالباء ، لأن كافّة لا تستعمل إلا حالاً ، وقد أورد العدناني⁴ وعباس حسن⁵ وآخرون جواز ذلك ، فإن إجماع أغلب النحويين واللغويين على استعمالها حالاً لا يعني عدم جواز استعمالها مرفوعة أو مجرورة ،

¹ يُنظر : إصلاح المنطق : 7 ، وشرح الشافية 1/123.

² يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 63/1 ، وتاج العروس 19/685.

³ يُنظر : شرح المفصل (ابن يعيش) : 66/1 ، وشرح الكافية : 2/52.

⁴ يُنظر : معجم الأخطاء الشائعة : 218-219.

⁵ يُنظر : النحو الوافي : 2 / هامش 379.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

فقد استعملها صاحبها اللسان والتاج مرفوعةً ومجروة¹ ، وذكر الصبّان أن (كافّة) جاءت مجرورة مضافة في كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : " قد جعلت لآل بني كاكلة على كافّة المسلمين لكل عام مائتي مثقال ذهباً " ، ويقرر العدناني : أن استعمال (كافّة) منصوبة على الحال قوي وبلّغ ، لكن استعمالها معرفةً بأل أو مضافة جائز أيضاً.

وذكر ابن يعيش أن عبارة الزمخشري : " بكافة الأبواب " فيها شذوذاً آخر وهو : أنه استعمالها مع غير الناس ، والكافّة : الجماعة من الناس لُغَةً² ، وعاب عليه ذلك أيضاً ابن هشام في المغني ، فقد جوز الزمخشري استعمال (كافّة) مع من لا يعقل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾³ ، إذ قدر (كافّة) نعتاً لمصدر محذوف - أي إرساله كافة - ووهم ابن هشام الزمخشري أيضاً فيما جاء عنه في مقدمة المفصل (كافة الأبواب) ، لإخراجه عن النصب واستعماله مع من لا يعقل⁴.

وقد أجاز استعمالها مع غير العاقل صاحبها اللسان والتاج ، فقوله تعالى: (ادخلوا في السلم كافة) ، يجوز أن يكون معناه: ادخلوا في السلم كله ، أي في جميع شرائعه - أي ابلغوا في الإسلام إلى حيث تنتهي شرائعه ، وهي من الجمع والإحاطة ، فمعناه : ما يكف الشيء في آخره⁵.
استعمال ما عده بعضهم لحناً :

ذكر ابن يعيش أن قول الزمخشري : "والذي يُقضى منه العجب" : أي يُوفى منه العجب حقّه - أي أديت حقّه ، ولا تكاد العرب تستعمل هذه اللفظة إلا منفيةً ، نحو: ما قضيتُ العجب من هذا ، لإرادتهم تفخيم الأمر والمبالغة فيه ؛ فهو مما لا يُمكن توفية حقه لعظمه - هذا ما ذكره الأصمعي في كتابه (ما يحلن فيه العامة) ، فالعامة

¹ يُنظر : لسان العرب : 142/14 ، 314/15 ، وتاج العروس : 460/12 ، 233/20 ،

² يُنظر شرح المفصل (ابن يعيش) : 66/1 .

³ البقرة : 208 .

⁴ يُنظر : مغني اللبيب : 733/2 .

⁵ يُنظر : لسان العرب : 305/9 ، وتاج العروس : 460/12 .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الاول)

تقول : قضيتُ العجب من كذا ، والصواب : ما كدثُ أقضي منه العجب ، وقد أجازهُ ابن يعيش لإرادة الإكثار من العجب تفخيماً لسببه¹ .

ورأى ابن الحاجب أن ما ذهب إليه الأصمعي بأباه التحقيق ، فالمنفي يكون مثبتاً بعد كاد ، أو لم يكن ، وقول الزمخشري : يُقضى منه العجب : أي يبلغ نهايته ، والعجب يكون للتعجب ولما يكون منه التعجب² .

المؤلف : لقد تميزت مقدمة المفصل بخصائص لم تتوفر في مقدمات الكتب السابقة له ، فمقدمة المفصل حملت شيئاً من المنهجية ، وضوح موضوع الكتاب ومادته ، بيان الهدف من التأليف ، وإلقاء الضوء على كيفية تصنيف الأبواب وأقسامها³ ، وهذا ما سنجدهُ في النصوص الآتية :

سبب تأليف الكتاب ، وموضوعه:

إن ابتداء الزمخشري المقدمة ببيان محاسن العربية وأهمية الإعراب ، كان تمهيداً لإلقاء الضوء على أهمية المفصل ، وأهمية الموضوع الذي يتناوله ، بل إنه نصّ على أهمية العلم الذي تناوله في المفصل وأثره في العلوم الأخرى ولاسيما الإسلامية منها؛ فهم "لا يجدون من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بينٌ لا يُدفع..." ، فضلاً عن الحاجة لهذا العلم في شتى جوانب الحياة من المكاتبات والعقود والمراسلات والمجالس والحلقات "فهم متلبسون بالعربية أتيّةً سلخوا غير منفكين منها أيماً وجهوا".

ومن هذه الحاجة الملحة ينفذ إلى بيان سبب تأليف المفصل : "ولقد ندبني مال بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب وما بي من الشفقة والحدب . على أشياعي من حفدة الأدب ؛ لإنشاء كتاب في الإعراب" ، فقد دعتهُ حاجة المسلمين خصوصاً دون سواهم ، لأنهم في الغالب هم المتكلمون باللسان العربي ، والنحو قانون هذا اللسان ، وهم المحتاجون له في معرفة القرآن والسنة اللذين بهما عماد دينهم ، إلى إنشاء كتاب في الإعراب.

¹ يُنظر شرح المفصل (ابن يعيش) : 50/1.

² يُنظر شرح المفصل (ابن الحاجب) : 7/1.

³ يُنظر : الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري: 107.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

فموضوع الكتاب هو في الإعراب ، وهذا مادّل عليه أيضاً عنوان الكتاب : "المفصل في صنعة الإعراب" ، و"معلوم أنه ليس مختصاً بالإعراب وصنعتة وإنما يشمل بحثاً صرفية ولغوية إضافة إلى البحوث النحوية"¹ ، ولعل الزمخشري أراد بمصطلح الإعراب هنا البيان والوضوح ، فالرجل الفصيح يقال له معرب ، والمبين عن حاجته يُقال له معرب ، وهو يتابع البصريين الذين لم يستعملوا غير مصطلح الإعراب للدلالة على معناه² .

إلا أن تلبس لفظة الإعراب بلفظة الصنعة في عنوانه يُخصص الاستعمال الاصطلاحي للإعراب بلفظه ومعناه ، لعله يُريد أن جميع أبواب النحو متعلقة متصلة بالإعراب ، وما زاده من الأبواب الصرفية أو اللغوية جاء به بمعنى الإبانة والإيضاح التي لا بد منها لتحقيق الفصاحة ، ومما يدلّ على صحة هذا النظر كلامه في سائر المقدمة عن الإعراب وأهميته وتعالقه مع أبواب النحو الأخرى فضلاً عن تماسه المباشر أو غير المباشر مع العلوم الإسلامية.

منهجية الكتاب ، وأدوات الكاتب :

تتميز مقدمة المفصل عن غيره من الكتب النحوية المؤلفة في بابيه ممن سبقه أنه يعرض لمنهجه في التأليف ، فيقول : "فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل في صنعة الإعراب . مقسوماً أربعة أقسام القسم الأول في الأسماء القسم الثاني في الأفعال القسم الثالث في الحروف القسم الرابع في المشترك من أحوالها وصنفتُ كلا من هذه الأقسام تصنيفاً . وفصلت كل صنّفٍ منها تفصيلاً . حتى رجعت كل شيء إلى نصابه واستقرّ في مركزه" ،

ولا ريب أن تصنيفه الكتاب بهذه الصورة كان تصنيفاً تعليمياً في المقام الأول ، يهدف من وراءه التسهيل على الطالب حفظه ، وأن يجد الناظر فيه مرامه ؛ وقد نصّ على ذلك بقوله : " مرتبٍ ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي . ويملاً سجالهم بأهون السقي" ، فطلاب العلم مفتقرون إلى كتاب في تعليم العربية ، وكتابه

¹ المصدر السابق : 108.

² يُنظر : تطور المصطلح النحوي من سيبويه حتى الزمخشري : 51.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الاول)

كتاب صالح لتعليم العربية¹؛ فهو يدل على ذلك بقوله: "صنفتُ كلا من هذه الأقسام تصنيفاً . وفصلت كل صنفٍ منها تفصيلاً . حتى رجعتُ كلُّ شيءٍ إلى نصابه واستقرَّ في مركزه".

إن المفصل "تأليف حسب منهج معين يصدر عن فكرة واضحة وضعها المؤلف امام أعيننا .. فالجديد عنده هو عرضه لخطة البحث أولاً ثم هذا التقسيم الذي اختلف فيه عن سبقة وذلك بوضعه قسم في البحث جديد أسماء (قسم المشترك)²، الذي عرض فيه "للإمالة والوقف، والقسم، تخفيف الهمزة، النقاء الساكنين، اوائل الكلم، زيادة الحروف، إبدال الحروف، الاعتلال، الإدغام"³

ثم يُبين الزمخشري أدواته وطريقته في تناول موضوعات الكتاب، فيقول: "ولم أدخر فيما جمعتُ فيه من الفوائد المتكاثرة ونظمتُ من الفرائد المتناثرة مع الإيجاز غير المخل والتلخيص غير الممل مناصحة لمقتبسيه"، فهو لم يبق شيئاً مما عنده من علم إلا أودعها فيه، جامعاً فيه كل المسائل الفاخرة المتفرقة، معبراً عنها بإيجاز وتلخيص غير مغلين ولا مملين، ولعل ذلك الإيجاز والتلخيص هو السبب الذي أدى إلى شرحه والتعليق عليه وبيانه والتفصيل في أبوابه وشواهد في مؤلفات عديدة لعلماء أعلام كابن يعين وابن الحاجب⁴.

الخاتمة

يتناول البحث فكرة جديدة تستهدف مقدمات الكتب النحوية بدراسة تستتطق النص، وتستهدفه من حيث هو يمثل باباً يلج منه القارئ إلى معرفة المؤلف ومرجعياته الثقافية وقدرته اللغوية، ويُنظر إليه بوصفه مرآة لعصره، حاكياً عن أبرز تجلياته، وهو بعد المؤلف يبحث في ثنايا المقدمة عن منفذ للتعرف إلى الكتاب وموضوعه وقيمه ومنهجه، وهذا الجانب المنهجي كان جانباً متروكاً في أغلب مقدمات الكتب النحوية القديمة.

¹ شرح المفصل (ابن الحاجب): 11/1.

² الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري: 110.

³ المصدر السابق: 109.

⁴ يُنظر: التخمير: 44/1، والزمخشري: 269.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

- لقد أفصحت مقدمة المفصل عن : شخصية الزمخشري المعروفة بالورع والتقوى ، والتعلق بالمذهب الحنفي وتفضيله، ولكنها لم تلمح لنا عن مذهب الزمخشري وعقيدته الاعتزالية .
- أبرزت مقدمة المفصل حب الزمخشري للعربية ودفاعه عنها وقد دفعه حبه للعربية أن يؤسس جلاً مقدمة المفصل عن العربية وفضلها ، ونقص من يرفضها أو يدعو إلى مفارقتها .
- لقد تميزت مقدمة المفصل بموقف شديد من الزمخشري تجاه الشعوبية ، وتمجيداً وزهواً بعلم العربية والتمكن منه ، فهو يحمد الله في مقدمة المفصل على تمكنه من علم العربية ، وعدم انجراره إلى تيار الشعوبية ، وسبب ذلك أن العصر الذي عاش فيه الزمخشري تميز بالتعصب للقومية ، ومحاولة إقصاء العربية وإحياء اللغات القومية بدلاً عنها ، فصارت الشعوبية علماً لكل من يُصغّر شأن العرب .
- أبرزت لنا المقدمة مواقف الزمخشري من قضايا لغوية ونحوية مهمة ، كموقفه من الإعراب الذي يتابع فيه علماء العربية القدامى في نظرتهم للإعراب ومكانته في بيان المعنى ، الذين لم يقصروا الدلالة على المعنى بالإعراب فقط ، فهم كانوا يهتمون بدراسة التراكيب من خلال العلاقات القائمة بين أجزائها، وما يوجد من تكامل بين ألفاظها، وما تحمله من الدلالات ، والزمخشري يوافق ذلك فلم يقصر إدراك المعنى على الإعراب ، ففي نص المقدمة نجده يُركز على مسائل غير الإعراب يجدر الاهتمام بها ، كالفرق بين المعرّف والمنكر ، وتعريف الجنس والعهد ، ودلالات الحروف ، ومواطن الحذف والإضمار ، وأساليب الاختصار والتكرار ، لكنه يخصّ الإعراب ويميزه عن غيره من القرائن التي تتظافر لإبراز المعنى.
- لقد كان الزمخشري متمكناً من فنون البلاغة وصنوف الفصاحة ، مستعملاً لمختلف صورها في مقدمته الموجزة ، فمن ذلك استعماله الأبينة المتعددة بما يناسب فواصل الكلام ، ويمنح إيقاعاً جميلاً في السمع ، ومن ذلك أيضاً استعماله العديد من الألفاظ المتقابلة التي تمنح الكلام توازناً وانسجاماً ، وتسبكه سبكاً ، فيطلب آخره أوله ويجذبه بعضه بعضاً ، بصياغة أسلوبية رائعة .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

- إن تمكنه من البلاغة واقتداره على صور الفصاحة لم ينحى به منحى الإفاضة بألفاظ لا حاجة لها ، أو تكرار مملول لا مقصد فيه ، بل نجده في أغلب ألفاظه دقيقاً في الإيراد ، محصاً في المعنى ، من ذلك استعماله (العربية) بدلاً من اللغة العربية ، ليشمل علومها اللغوية ، وغير اللغوية ، واستعماله لفظ (السرة) بدلاً من الوسط ، لما فيها من معنى التوسط مضافاً إليه الخلوص والأفضلية.
 - شخصية الزمخشري اللغوي ، والمفسر ، المصنف في اللغة والتفسير والأمثال أشهر المصنفات ، برزت بوضوح في مقدمة المفصل الوجيزة ، فقد كانت اقتباساته كثيرة موزعة حسب ما تقتضيه المقاصد.
 - إن ما عرّف عن الزمخشري من استشهاده بشعر المولدين ، يُعلل توسعه في استعمال بعض الأبنية والتراكيب التي وسمها جمع من العلماء واللغويين بالشذوذ والندرة ومخالفة القياس ، وهذا ما نجده في بعض ألفظ مقدمته ، مثل: (الفعل أبى من الباب الثالث ، التفضيل ب(أجدى) خلاف القياس ، استعمال(كافة) مجرورة ولغير العاقل ، استعمال تركيب (يقضى منه العجب) مثبتاً).
- وأخيراً قدّم لنا الزمخشري مقدّمة في المفصل تختلف كثيراً عن مقدمات الكتب السابقة له ، فقد أسس فيها لفكراً منهجياً واضحاً ، يعرض فيه أهمية الكتاب وموضوعه ، سبب التأليف ومدى الحاجة إليه ، منهجية الكتاب وتصنيف أبوابه بصورة تسهل على الطالب والمتعلم تناوله والنهل من فوائده المتعددة.

المصادر :

1. إصلاح المنطق ، لابن السكيت (ت244هـ) ، ط1 ، 1412 ، مؤسسة الطبع في الأستانة الرضوية المقدسة - إيران .
2. أطواق الذهب في المواعظ والخطب ، لجار الله الزمخشري ، طبع بمطبعة السعادة سنة 1328هـ.
3. الإيضاح في شرح المفصل ، لابن الحاجب أبي عمرو عثمان بن أبي يونس الدوني (ت646هـ) ، تحقيق : أ.د. إبراهيم محمد عبد الله ، دار سعد الدين - دمشق ، ط1 ، 2005م.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

4. تاج العروس ، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت 1205 هـ) تحقيق : علي شيري ، 1414 - 1994م ، دار الفكر - بيروت
5. تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط4 ، دار العلم للملايين - بيروت ، 1987م.
6. التبيان ، الشيخ الطوسي (ت 460 هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي الطبعة الأولى 1409 هـ ، دار إحياء التراث العربي
7. تطور المصطلح النحوي من سيبويه إلى الزمخشري ، أ.د. يحيى عطية عباينة ، عالم الكتب - الأردن ، ط1 ، 2006م.
8. تفسير الرازي ، للمفسر الرازي (606 هـ) ، ط3 ، دار الفكر - لبنان.
9. جمهرة الأمثال ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، ضبطه وكتبه همامش د. أحمد عبد السلام ، خرّج أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغول ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ، 1988م.
10. حاشية رد المختار - لابن عابدين (ت 1252 هـ) ، الطبعة الأخيرة ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 1995م .
11. الدراسات اللغوية والنحوية عند الزمخشري ، د. فاضل صالح السامرائي ، مطبعة الرشاد - بغداد ، 1971 م ، ط2 .
12. دراسات في اللغة ، عبد الحليم بو فاتح ، القاهرة ، 2008م ، (د.ط).
13. ديوان الزمخشري ، مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم 529 أدب.
14. الزريعة في أصول الفقه ، للسيد أبو القاسم الموسوي المرتضى (ت 436 هـ) ، تحقيق: أبو القاسم كرجي ، 1346ش، دانشگاه - طهران ، (د.ط).
15. الزمخشري ، د.أحمد محمد الحوفي ، دار الفكر العربي - القاهرة ، 1966م ، ط1 .
16. الزمخشري لغوياً ومفسراً ، مرتضى آية الله زادة الشيرازي ، تقديم : د. حسين نصّار ، دار الثقافة - القاهرة ، (د.ط) ، 1977م .

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الأول 2020 (المجلد الأول)

17. شرح الرضي على الكافية ، للرضي الاسترأباضي (ت686هـ) ، تصحيح وتعليق : د. يوسف حسن عمر ، مؤسسة الصادق - طهران ، 1975م ، (د.ط).
18. شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير ، صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (ت617هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي - مكة ، 1402 هـ ، (د.ط).
19. شرح المفصل للزمخشري ، موفق الدين أبي البقاء بن يعيش (ت643هـ) ، قَدَم ووضع هوامشه وفهارسه د:إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط1 ، 2001 م.
20. شرح شافية ابن الحاجب رضي الدين الأسترأباضي (ت686هـ) ، تحقيق وضبط وشرح : محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، 1395 - 1975 م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
21. العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) ، تحقيق : د.مهدي المخزومي ، د.إبراهيم السامرائي ، ط2 ، 1409 هـ ، مؤسسة دار الهجرة - إيران.
22. الفصول في الأصول ، للأمام أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت370هـ) ، ط1 ، 1985م ، (د.م).
23. لسان العرب ، : لسان العرب ، ابن منظور (ت711) ، ط1 ، 1405هـ ، قم - إيران.
24. لسان الميزان ، للأمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ) ، مؤسسة الأعلمي - بيروت لبنان ، ط2 ، 1971.
25. اللغة العربية معناها ومبناها ، د.تمام حسان ، عالم الكتب - القاهرة ، ط4 ، 2004م.
26. معجم الأخطاء الشائعة ، محمد العدناني ، ط2 ، 2003م ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت.
27. مُغني اللبيب عن كُتُب الأعراب، جمال الدين بن هشام الدين الأنصاري (711هـ) ، تحقيق: د. مازك المبارك، ومحمد علي حمد الله ، راجعه : سعيد الأفغاني، دار الفكر ، ط6، بيروت،1985م.
28. المفصل في علم العربية ، أبو القاسم الزمخشري 538هـ ، وبذيله في شرح أبيات المفضل للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي ، دار الجيل - بيروت ، ط2 ، (د.ت).
29. مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا (ت395) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، 1404هـ ، مكتبة الإعلام الإسلامي - قم.

ابحاث المؤتمر العلمي الدولي الرابع المشترك الثاني
"المستجدات الحديثة في التعليم العالي في ظل التعليم الالكتروني"
17-16 كانون الاول 2020 (المجلد الاول)

30. مقدمة الأدب للزمخشري ، طبع سنة 1843م المسيحية لبسيا المحروسة عند اوغست بن قنيسل الطباع.
31. النحو الوافي ، عباس حسن ، ط3 ، دار المعارف - مصر ، (د.ت).
32. النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير (ت606هـ) ، تحقيق : طاهر أحمد زاوي ، ومحمود محمد الطناحي ، ط4، 1364ش ، مطبعة اسماعيليان - قم إيران .
33. نوايغ الكلم للزمخشري - مكتبة المتحف العراقي ببغداد ، برقم 563.
34. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان (ت681هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة - لبنان ، (د. ط) ، (د.ت)

